

مأساة العرب: حضارة كانت تقود العالم وآلت الآن إلى خراب، وليس في وسع غير أبنائها إعادة بنائها(*)

مجلة «الإيكونومست»

تعاقبت مدن عظيمة مثل بغداد ودمشق والقاهرة على التسابق مع العالم الغربي قبل ألف عام. فالإسلام والابتكار توأمان. كانت دور الخلافة العربية المتنوعة قوى عظمى دينامية - منارات للعلم والتسامح والتجارة. لكنّ العرب اليوم في وضع بائس. بل إنه فيما تسير آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا في ركب التقدم، نجد أن الشرق الأوسط مُقَعَدٌ بسبب الطغيان، وحافلٌ بالاضطرابات بسبب الحروب.

عظمت الآمال قبل ثلاث سنين، حين أدّت موجة اضطرابات عمّت المنطقة إلى الإطاحة بأربعة طغاة في تونس ومصر وليبيا واليمن، وإلى المناداة بالتغيير في مناطق أخرى وفي مقدّمها سوريا. بيد أن ثمار الربيع العربي آلت إلى تجدد الحكم الاستبدادي وإلى الحرب. والنتيجة في كلتا الحالتين بؤس وتعصّب يهددان العالم كلّ اليوم.

يبقى السؤال عن سبب هذا الإخفاق المدوّي للدول العربية في بناء ديمقراطية، أو الوصول إلى السعادة أو جلب ثروة (عدا السعادة الناتجة عن الثروات النفطية) لشعبها البالغ عددها ٣٥٠ مليون نسمة - يبقى - أحد أشدّ الأسئلة إلحاحاً في زماننا. ما هي العوامل التي تجعل المجتمع العربي يشكّك في النظم الحقيرة وفي المتعصّبين العاقدين العزم على تدميرها (وتدمير من يُنصّر أنّهم حلفاؤها في الغرب)؟ لا أحد يلمّح إلى أن العرب يفتقرون إلى الموهبة أو أنهم يعانون من بُغْضٍ مرضيّ للديمقراطية. لكن لكي يستفيق العرب من كابوسهم، ولكي يشعر العالم بأسره بالأمان، ينبغي تغيير الكثير.

لعبة الملامة

إحدى مشكلات الدول العربية تفسّي معاناتها. في الحقيقة، نكاد لا نستطيع إطلاق صفة الدولة على سوريا والعراق في هذه الأيام. وفي هذا الأسبوع، أعلنت مجموعة متوحّشة

(*) في الأصل نُشِرَت هذه المقالة بالإنكليزية بعنوان: «The Tragedy of the Arabs: A Civilisation that

Used to Lead the World is in Ruins and Only the Locals Can Rebuild It.» *The Economist* (5 July 2014), <<http://www.economist.com/news/leaders/21606284-civilisation-used-lead-world-ruinsand-only-locals-can-rebuild-it>>.

من الجهاديين أن الحدود لاغية، وبشروا بالمقابل بخلافة إسلامية جديدة تشمل العراق وسوريا العظمى (بما في ذلك إسرائيل - فلسطين ولبنان والأردن وأجزاء من تركيا)، والعالم بأسره في الوقت المناسب. يسعى قادة هذه المجموعة لقتل غير المسلمين في شوارع نيويورك ولندن وباريس وليس في الشرق الأوسط فقط. كما عادت مصر لترزح تحت الحكم العسكري، وباتت ليبيا عقب هلاك القذافي بطريقة مأسوية تحت رحمة ميليشيات منفلة. واليمن غارق في تمرد، وقتال داخلي. ولا تزال فلسطين أبعد ما تكون عن دولة وسلام حقيقيين، إذ قُتل ثلاثة شبان إسرائيليّين والأعمال الانتقامية التي أعقبت ذلك تهدد بإطلاق شرارة دورة عنف أخرى. إن دولاً نظمها محمية بثروات النفط والغاز ومسنودة بالقبضة الحديدية للأجهزة الأمنية، مثل المملكة العربية السعودية والجزائر، أكثر هشاشة مما يبدو. وحدها تونس التي افتتحت رهانات العرب على الحرّية قبل ثلاث سنين تمتلك مقومات ديمقراطية حقيقية.

الإسلام، أو تفسيراته الجديدة على الأقل، في صميم بعض مشكلات العرب العويصة. فالزعم بأن الإيمان، كما يروّج العديد من الشخصيات الإسلامية البارزة، يجمع بين السلطتين الروحية والديوية، وليس فيه فصل بين المسجد والدولة، حال دون تطوّر مؤسسات سياسية مستقلة. وهناك أقلية مسلّحة من المسلمين غارقة في البحث عن الشرعية من خلال تفسيرات للقرآن مُغالية في عصبيتها. وهناك مسلمون آخرون لاذوا بطوائفهم هرباً من تهديد العنف الميليشيوي والحرب الأهلية. وبعد أن كانت الزيجات المختلطة شائعة بين الشيعة والسنة في العراق وسوريا، باتت كل طائفة تشوّه الأخرى غالباً. وقد نفّس هذا التشويه العنيف للإسلام إلى أن وصل إلى أماكن بعيدة مثل شمال نيجيريا وشمال إنكلترا.

لكنّ التطرّف الديني، وليس قضيته الجوهرية، طريق للشقاء. فإذا كانت النظم الديمقراطية في دول إسلامية أخرى (مثل إندونيسيا) تُبلي بلاءً حسناً، يعترى الضعفُ نسيج الدولة في العالم العربي. وقلة هي الدول العربية التي عرفت شكل الدولة منذ زمن بعيد. فما إن زال عن هذه الدول عبء السلطنة العثمانية التي حكمها الأتراك حتى ذاقت مرارة الذلّ على يد الحكّمين البريطاني والفرنسي عقب الحرب العالمية الأولى. بل إن السلطات الاستعمارية ظلّت تتحكّم بالحوادث أو تؤثر فيها حتى ستينيات القرن الماضي في أغلب العالم العربي. ولم تنجح الدول العربية بعد في تعهّد المستلزمات المؤسسية للديمقراطية - مناقشات برلمانية طويلة، وحماية الأقليات، وتحرير المرأة، وصحافة حرّة، وقضاء مستقلّ وجامعات ونقابات تجارية.

تزامن غيابُ الدولة الليبرالية مع غياب الاقتصاد الليبرالي. فعقب الاستقلال، ساد مبدأ التخطيط المركزي الذي استلهم من النموذج السوفياتي غالباً. كما أن معادلة السوق الحرّة والتجارة المفتوحة، والدعم الحكومي وفرص الضوابط بالإضافة إلى الحكومات العربية، خنقت اقتصادات هذه الدول. أمسكت الحكومات بمقاليد قوى السوق - حيث وُجد النفط بخاصة. وحيثما رُفعت قيود الاشتراكية التي أعقبت الاستعمار، حلّت رأسمالية المحاسيب والاستغلال السياسي للموارد مثلما حصل في آخر عهد الرئيس المصري حسني مبارك، إذ كانت مشاريع الخصخصة من نصيب أزلام الحكومة. لم تنعم أي من هذه الدول بسوق حرّة من الناحية الفعلية،

وقليلاً ما تأسست شركات مرموقة، ولم يجد اللامعون العرب الذين أرادوا التفوق في عالم المال والأعمال أو الحصول على منح دراسية بدءاً من التوجه إلى أمريكا أو إلى أوروبا لفعل ذلك. الركود الاقتصادي يغدّي مشاعر التذمّر. والملوك والرؤساء مدى الحياة يدافعون عن أنفسهم بشرطة التحريّ والبلطجية. أصبح المسجد مصدراً للخدمات العامة وأحد الأماكن القليلة التي تتيح للناس الاجتماع والاستماع إلى الخطب. وأسبغت على الإسلام صفة التطرف، وصار الرجال الساخون يكرهون الغرب لمساندته حكماً يمقتونهم. وفي هذه الأثناء، هناك شريحة واسعة من الشباب المتذمّرين بسبب البطالة. وبفضل وسائل التواصل الإلكترونية، ازدادوا تفتناً إلى حقيقة أن آفاق أقرانهم خارج الشرق الأوسط أكثر إشراقاً. والعجب ليس في نزولهم إلى الشوارع في الربيع العربي، بل في عدم نزولهم قبله.

الكثير من الخراب

لا يوجد طريقة سهلة أو سريعة لتصحيح هذه الأخطاء. والغرباء الذين تهافتوا على المنطقة كغزاة ومحتلّين لا يمكنهم القضاء ببساطة على قضية الجهاديين أو فرض الازدهار والديمقراطية. وهناك الكثير مما ينبغي إزالته، على الأقل، عقب غزو العراق والاحتلال الكارثي له في سنة ٢٠٠٣. ربما يساعد الدعم العسكري، تقديم طائرات بلا طيار وإرسال عدد محدود من عناصر القوات الخاصة، في إبقاء الجهاديين تحت السيطرة. ربما ستكون هذه المساعدة تحت طلب دائم. ومع أن تحوّل الخلافة الجديدة إلى دولة معترف بها أمر مستبعد، يمكنها على مدى سنين كثيرة إنتاج جهاديين قادرين على تصدير الإرهاب.

لا يمكن لغير العرب عكس مسيرة انحطاطهم الثقافي، وليس في الوقت الحالي بصيص أمل بحصول ذلك. وليس في مقدور المتطرّفين توفير هذا الأمل. و«الاستقرار» تعويذة الملوك ورجال العسكر. يمكننا تفهّم جاذبيتها في زمن الفوضى، لكنّ القمع والركود ليسا الحلّ. وحتى إن انتهت الصحوة العربية الآن، لا تزال القوى الجبّارة التي بعثتها حاضرة. وإعادة اختراع وسائل الاتصال الاجتماعي التي أجمت ثورة في المواقف ليست مستحيلة. لا يزال الرجال في قصورهم، وعلى داعمهم الغربيين أن يفهموا أن الاستقرار يستلزم الإصلاح.

أهذا أمل فارغ؟ يبدو المشهد دموياً اليوم. لكنّ فناء المتعصّبين في النهاية سيكون بأيديهم. وفي هذه الأثناء، ينبغي للمعتدلين العلمانيين السنّة، الذين يشكّلون غالبية المسلمين العرب، أن يُسمِعوا صوتهم متى أمكنهم ذلك. وعندما تجبى فرصتهم، عليهم أن يصوغوا عقولهم بالقيم السابقة التي جعلت العالم العربي عظيماً ذات يوم. والعلم يوطّد تفوّقه في علوم الطبّ والرياضيات والهندسة والفلك. وعندما كان العالم العربي في أحسن أحواله، كان جنّة عالمية لليهود والمسيحيين والمسلمين على اختلاف طوائفهم، حيث رعى التسامح الإبداع والاختراع.

التعددية والتعليم، والأسواق الحرّة: تلك كانت قيماً عربية، ويمكن أن تعود كذلك. وفيما يتصارع السنّة والشيعية في العراق وسوريا اليوم، وفيما يتربّع جنرال سابق على عرشه الجديد في مصر، تبدو هذه القيم أمالاً بعيدة المنال على نحو مأسوي. لكنها لا تزال تشكّل رؤية لمستقبل أفضل لأناس يعيشون أوضاعاً فيها الكثير مما لا يشتهون □